والفرنجة فى العصور الماضية ، ووفد إليهم وباء الاستعمار أخيراً ، فقاموا لذلك كله بحماسة عربية ، وندبوا الماضى الجليل ، واستحثوا الهمم ، وبكوا لما حلّ بهم من نكبات فادحة كخروجهم من الأندلس ، وضياع أراضيهم فى المغرب والمشرق ، ولكنهم لم يصنعوا هذا الهجاء بمفهومه السياسى الدقيق . وإذا قلبت كتب المتأخرين ودواوينهم وجدت الشعراء قد رسموا للغرب صورة قاتمة ولكنهم لم يبلغوا من القوم بحيث حطوا من تاريخهم وأنسابهم وحضاراتهم وصورهم ، وإنما وقفوا منهم مشدوهين لحضارتهم ، فاستحلفوهم بمبادئ الإنسانية والمثل العليا أن يكفوا عن الظلم والعدوان . كذلك كان حافظ حين أعجب بالإنكليز ولكنه رثى لحال المصريين وظلم الاستعمار وندّد بأخلاق قومه فهجا مصر وردد قول المتنبى : « وكم ذا بمصر من المضحكات » ، وحين عرض لدنشواى طلب من الغاصبين الظالمين أن يترفقوا فهم من شعب كبير يحكم الأرض ، وقال :

أحسنوا القتل إن ضننتم بعفو ... أقصاصاً أردتمُ أم كيادا

وشوقى ذم الفرنسيين فى الشام والطليان فى طرابلس الغرب ، ولكنه تحمس وبكى ، واستكبر الفواجع ورثى ، ومال إلى الشرقيين والعرب فدعاهم إلى الوحدة والإخاء والوقوف فى وجه الأعداء .

وفى المعاصرين من تناول الغربيين فى شعر قريب من شعر حافظ وشوقى لهذا الباب ، ولكنه زاد فرمى الأمم المستعمرة بالعنت والظلم والاستبداد وإخفار الذمم ، وفى هذا يقول عادل الغضبان :

أوَ كلما جن البغاةُ جنونهمْ ... مطروا العباد الوادعين وبالا
ورموْهمُ بالمهلكات ومزقوا ... أوصالهمْ وتقاسموا الأوصالا
إن عاهدوا نقضوا وإن همْ واعدوا ... نكثوا الوُعودَ وزيّفوا الأقوالا
الحق باسْم الحق يهتضمونه ... والزور باسْم السيف سادَ وطالا
الحرُّ يحلمُ فى الأذاة فإنْ يثُرْ ... يَفْرِ الحديد ويحطم الأغلالا

ومنهم من تشفى منها لمصائبها فقال الأخطل الصغير للدول الغربية :